﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى خطأ من نسب الرسول ﷺ إلى الغُلول والخيانة أكّد ذلك بهذه الآية؛ لبيان نعمة وجود هذا الرّسول بين ظهرانَيْهم؛ فقد وُلِد في بلدهم، ونشأ بينهم، ولم يظهر منه طولَ عمره إلّا الصِّدق، والأمانة، والدّعوة إلى الله، والإعراض عن الدُّنيا، فكيف يليق بمن هذه حاله الخيانة؟! فوجوده فيهم من أعظم نعمه عليهم، وتشريفُه تعالى له وتخصيصه بمزايا الفضل والإحسان شرفٌ عظيمٌ بسبب كونه فيهم، فطعنُهم فيه، واجتهادُهم في نسبة القبائح إليه على خلاف العقل. وهو ما يستوجب على كلّ عاقل أن يعينه بأقصى ما يقدر عليه بمحاربة أعدائه، فيكون معه باليد واللّسان والسّيف والسِّنان[1]. فـ "لمّا أرشدهم إلى هذه المَراشِد، وبيّن لهم بعض ما اشتملت عليه من الفوائد، وبان بهذه القصّة قَدْرُ من أسدى إليهم ذلك على لسانه ﷺ بما له من الفضائل الّتي من أعظمها كونه من جنسهم، يميل إليهم ويرحمهم، ويعطف عليهم، فيألفونه، فيعلّمهم؛ نبّه على ذلك سبحانه وتعالى؛ ليستمسكوا بِغَرْزِهِ، ولا يلتفتوا لحظة عن لزوم هديه"[2].

و"أنّه تعالى لمّا ذكر الفريقين: فريق الرّضوان، وفريق السّخط، وأنّهم درجات عند الله مُجملًا من غير تفصيل، فصّل أحوالهم، وبدأ بالمؤمنين، وذكر ما امتنّ عليهم به من بعث الرّسول إليهم تاليًا لآيات الله، ومبيّنًا لهم طريق الهدى، ومطهرًا لهم من أرجاس الشّرك، ومنقذًا لهم من غمرة الضّلالة بعد أن كانوا فيها، وسلّاهم عمّا أصابهم يوم أُحد من الخِذْلان والقتل والجَرْح، لما أنالهم يوم بدر من الظّفر والغنيمة. ثمّ فصّل حال المنافقين الّذين هم أهل السّخط بما نصّ عليه تعالى"[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/417.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَّ﴾: الميم والنُّون أَصلان أَحدُهما يدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ وجميل[1]. والمِنَّة: النِّعمة الثّقيلة، ويُقال ذلك على وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيُقال: مَنَّ فلان على فلان إذا أثقله بالنّعمة. والثّاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مُستقبحٌ فيما بين النّاس إلّا عند كفران النّعمة[2]. ومنَّ عليه منًّا: أنعم. والمَنَّانُ من أسماء الله تعالى[3]. فهو منّانٌ على عباده بإحسانه، وإنعامه، ورزقه إياهم، وهو عظيم المواهب: أعطى الحياةَ، والعقلَ، والمنطقَ، وصوَّر فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النعم، وأكثر العطايا والمِنَح، وهو سُبْحَانَهُ يعطى ابتداءً، وانتهاءً، ويعطي فوق الآمال، وما لايخطر على بال، وله المنة على عباده، ولايطلب جزاءً على إحسانه[4]. والمَنّ: العطاء. ومَنَّ عليه: أنعَمَ وأحسَنَ؛ إذِ الإنعام والإحسان رقّة ورحمة تمتدّ من المحسن، وترقيق حالٍ لمن وَقَعَ الإحسان إليه[5].

2) ﴿بَعَثَ﴾: الباء والعين والثّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارة[6]، والإرسالُ، والهَيَجان، والتّنبيه. ويومُ البَعثِ: يومُ القيامة[7]. وبَعَث عليهم البلاء: أحلَّه بهم. وهو الحمل على الشّيء، والاندفاع، والإيقاظ[8]. وخلاصة البعث في كلام العرب على وجهَين أَحدهما الإرسال، والإثارة، والآخر: الإحياء من الله للموتى[9]. والإيجاد للأعيان، والأجناس، والأنواع[10].

وتحرير معاني وروده في القرآن: بَعثُ المَوتى من القبور، وتوجيه رسول أو نبيّ، أو ملك، أو حَكَم، أو نقيبٍ، والإثارة، والدّفع، وإنهاضٌ بعد موت مؤقّت أو نوم أو نحوه[11]. ومعناه في الآية الكريمة توجيه رسول الله ﷺ إلى المسلمين بالرّسالة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منن).
(2) الرّاغب، المفردات: (منن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (منن).
(4) القرطبي، شرح أسماء الله الحسنى: 1/260، والبيهقي، الأسماء والصفات: 1/170.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (منن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(7) الخليل، العين: (بعث).
(8) ابن سيده، المحكم: (بعث).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بعث).
(10) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).

3) ﴿رَسُولًا﴾: الإرسالُ في اللّغة: التّتابع[1] فـ "الرَّاء والسِّين واللَّام أَصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ مُنقاسٌ يدُلُّ على الانبعاث والامتداد"[2]. والرَّسُلُ: الّذي فيه استرسال، ولين، وأصلُه الانبعاث على تُؤَدَةٍ، ومنهُ الرّسولُ المنبَعِثُ، وجمعه رُسُلٌ، ورسل الله تارة يُراد بها الملائكة، وتارة يُراد بها الأنبياء[3]. والإرسالُ: التّسخير، والتّوجيه[4]. ورسالةُ الرّسولِ ما أُمر بتبليغه عنِ الله[5]. والرّسول ينطلق من طرف من أرسله برسالة متميّزة عنه، أي: ليس هو منشئها[6]. وهذا معنى اللّفظ الوارد في الآية الكريمة.

4) ﴿يَتْلُواْ﴾: "التَّاء واللَّام والواو أَصلٌ واحدٌ، وهو الاتِّباعُ. يُقالُ: تَلَوتُهُ إذا تَبِعتَهُ. ومنه تلاوةُ القرآن، لأَنَّه يُتبِعُ آيةً بعد آيةٍ"[7]. وتلاه: تبعه متابعةً ليس بينهم ما ليس منها، ويكون بالقراءة وتدبّر المعنى، ومصدره: تلاوة، والتّلاوة تختصُّ باتّباع كتب الله المُنزّلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب[8].

فالتّلاوة بمعنى القراءة، كما في تلاوة القرآن والنّشرات، أصله من تتبع الكلام المكتوب عند القراءة، أي: اتّباعه كلمة كلمة[9].

5) ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾: الآية: العلامةُ، ومنه آية القرآن؛ لأنّها جماعة حروف، والجمع آي[10]، وقيل: سُمّيت الآيةُ من القرآن آية؛ لأنّها علامةٌ لانقطاع كلامٍ من كلام. وآياتُ الله: عجائبُه. والآيةُ من القرآن العلامةُ الّتي يُفضَى منها إلى غيرها كأعلام الطّريقِ المنصوبةِ للهدايةِ، كما قيل: إذا مضى علمٌ منها بدا علمُ[11]. فلفظ الآية في القرآن الكريم بمعناه المتعارف عليه؛ هو: جماعة حروف القرآن، وكلماته، واستُعمل بمعانٍ أُخر كالعلامة

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن سيده، المحكم: (رسل).
(5) مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، دار الدّعوة: 1/344.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو)، وينظر: الجوهريّ، الصّحاح: (تلا).
(8) الرّاغب، المفردات: (تلى).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى).
(10) الخليل، العين: (أيا)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أَيَّ).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).

الإعجازيّة، وغيرها، والسِّياق يميّز[1]. ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة آيات القرآن، أي: جماعة حروف القرآن، وكلماته.

6) ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: الزّكاة: الصّلاح. تقول: رجلٌ زكيٌّ، أي: تقيٌّ[2]. والزَّكاةُ: صِفوة الشَّيء[3]. وكلُّ كلمة (الزّكاة) في القرآن هي بمعنى زكاة المال، وأمَّا سائر ما في القرآن من مفردات التّركيب فهو بمعنى طهارة النّفس، وزكاتها بالطّاعة، وصالح الأعمال، والصّلاح، وزيادة الإيمان تمدُّحًا، والتّطهير، والبركة، والتّنمية في وجوه الخير والبرّ[4]. فالتّزكية تطهير النّفس مُشتقّة منَ الزّكاة؛ وهي النّماء؛ لأنَّ في أصل خلقة النّفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النّفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها[5].

7) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحاء والكاف والميم أَصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ. وحَكَمَ أصلُهُ: منع منعًا لإصلاح. والحكمة هذا قياسُها؛ لأَنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهل، فهي إصابةُ الحقِّ بالعِلم والعقل، وهي من الله تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخيراتِ[6]. ومَرجِعُها إلى العَدل والعِلم والحِلم. ويُقال: أحكَمَته التّجارِبُ إذا كان حَكيمًا[7]. فالحَكيمُ: العالمُ، وصاحبُ الحكمة المُتقِنُ للأمور[8].

8) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: الضَّاد واللَّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو ضياعُ الشَّيء وذَهابُهُ في غَيرِ حَقِّهِ[9]. وضَلَّ إذا جارَ عن القَصد، وهلَك[10]. والضّلال ضدّ الهدى. وضلَّ في الأَرض ضلالًا إذا لم يهتدِ للسّبيل[11]. وضللت: إذا أخطأتَ مَوضِع الشَّيء الثَّابِت[12].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي، إي).
(2) الخليل، العين: (زكو).
(3) ابن سيده، المحكم: (زكو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زكو).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(7) الخليل، العين: (حكم).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (حكم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(10) الخليل، العين: (ضل)، والجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(12) الأزهريّ: تهذيب اللّغة: (ضل).

والضّلال: هو العُدولُ عَنِ الطّريق المستقيم، ويُضادُّه الهداية، وهو: كُلُّ عُدولٍ عَنِ المنهج، والحَقِّ، عَمداً كان أم سَهواً، يَسيراً كان أم كثيرًا. وهو ضَربان: ضلالٌ في العلوم النَّظريَّة، كالضَّلال في معرفة وَحدانيَّتِهِ تعالى، ومعرفة النُّبُوَّة، ونحوِهما، وضلالٌ في العلوم العمليّة، كمعرفة الأَحكام الشَّرعيَّة الَّتي هي العباداتُ[1]. والضّلال في الآية الكريمة من الضّرب الأوّل.

9) ﴿مُّبِينٍ﴾: الباء والياء والنّون أصلٌ واحد يدلُّ إمَّا على بُعد الشّيء، وإمَّا على انكشافه؛ فبان الشّيءُ، وأبان إذا اتّضح وانكشف[2]. وسُمّي ما يُشرَح به المُجمَل والمُبهَم من الكلام بيانًا، ويقال: بيّنتُه وأَبَنْتُه: إذا جعلتَ له بيانًا تكشِفُه[3]. ومن المعنى الأوّل استنبطت دلالة الفصل والتّمييز، ويؤول معناه إلى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصول المتميّز من غيره يلفت النّظر. والانكشافُ، والوضوحُ، والظّهورُ هو المعنى الّذي جاءت به كلُّ مفردات التّراكيب القرآنيّة عدا الظّرف (بين)[4]. وبه تُفسّر اللّفظة في الآية المباركة، فضلالُهم واضحٌ بيّنٌ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعثة رسول الله من روائع المنح، وعظائم المنن

يبيِّنُ اللّهُ المِنَّةَ التي أنعم الله بها على المؤمنين من العرب وعلى عباده؛ وهي أكبر النِّعم، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعَصمهم به من الهَلاك، إذ بعث فيهم رسولًا من جنسهم عربيّاً من ولد إسماعيل وبلسانهم؛ ليسهُلَ أخذُ ما يجب عليهم أخذُه عنه ممَّن عرفوا فيه الصِّدق والأمانة، يتلو عليهم آيَ القرآن بعدما كانوا أهلَ جاهليةٍ لم يَطرق أسماعَهم شيءٌ من الوحي، ويُطهِّرُهم بالإيمان من الشرك والأخلاق الفاسدة، ويعلِّمُهم القرآنَ والسُّنَّة، وقد كانوا مِن قبل بعثته ﷺ لفي عمًى ظاهر وجهالة واضحة[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (ضل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الرّاغب، المفردات: (بين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/308، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

وترشدُ الآية الكريمة إلى عظيم مِنَحِ الله لعباده، وتفضّله عليهم بتهيئة أسباب هدايتهم، وسبل نجاتهم من ضلالهم، فهل لذلك من كفاءٍ إلّا الطّاعة والانقياد؟

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ الفَصْلِ في الآية:

الاستئناف للتّذكير بنعم الله

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ استئنافٌ لتذكيرِ رجالِ يوم أُحد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله عليهم، ومناسبة ذكره هنا أنّ فيه من التّسلية على مصيبة الهزيمة حظًّا عظيمًا؛ إذ قد شاع تصبير المحزون، وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النّعم، وله مزيد ارتباط بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، وكذلك جاءت آيُ هذا الغرض في قصّة أُحد ناشئةً بعضها عن بعض، مُتفنّنة في مَواقِعها بحسب ما سمحت به فرص الفراغ من غرض، والشّروع في غيره، فما تجد اطِّرادَ الكلامِ يغدو طَلْقًا في حلبة الاستطراد إلّا وتجد له رواحًا إلى منبعثه[1].

بلاغةُ توكيدِ المَطْلَعِ للمبالغةِ في تحقُّقِ المنِّ ووقوعِه:

أكّد عظيم المنّة والعطاء باللّام، وبالقسم المُتحقّق بلفظ (قد) الدّالّ على التّحقيق لدخوله على الفعل الماضي؛ ليدلّ على المبالغة في وقوعه وتحقّقه.

علّة إظهار اسمه الأعظم:

التّشريف لرسوله والمؤمنين، والمبالغة في منحها

أظهر تعالى اسمه الشّريف في قولِه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الدّالّ على كمال الصّفات فاعلًا للمنِّ تشريفًا لرسوله والمؤمنين، ومبالغةً في هيئتها، فمنّةُ الله على رسوله ﷺ تُعطي عطاء على قدر الدّنيا، وعلى امتداد الآخرة، فتكون هذه منّة كبيرة[2]. ويُلمح ههنا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157 - 158.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1851.

أنّ ذات رسالته نعمة[1]، وأنّ إيكال تعليم المؤمنين القرآن وتلاوته، والحكمة، وتزكية أنفسهم من أعظم نعم التّشريف، ورفعة المكانة.

تعيينُ المقصودِ بالمؤمنين في الآيةِ:

هم المخاطَبون وقتَ نزولِ الآيةِ بالاعتبارِ الأولويِّ

المُراد بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المؤمنون يومئذ، وهم الّذين كانوا مع النّبيّ ﷺ بقرينة السّياق وهو قوله: ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: من أمّتهم العربيّة، و(إذ) ظرف لـ (من)؛ لأنّ الإنعامَ بهذه النّعمة حصل أوقات البعث[2]، فهم المقصودون بالدَّرجةِ الأولى، ويدخلُ بقيَّةُ المؤمنين في كلّ العصور[3]، باعتبارِه منَّةً في أعناقِهم.

تخصيصُ المؤمنين بالامتنان؛ لأنّهم المجتبون

وتخصيصُهم بالامتنان مع عموم نعمةِ البعثةِ للأسود والأحمرِ؛ لأنّهم المجتبون لهذه النّعمة[4]، ولمزيد انتفاعِهم بها[5]، أمّا الباقون فقد أهدروا حقّهم في الأسوة، ولذلك تكون المنّة على من آمن[6].

فائدة التّعبير بلفظ ﴿إِذۡ﴾:

(إذ) ظرفٌ للفعل (مَنَّ)؛ للدّلالة على أنّ الإنعام بهذه النّعمة حصل أوقات البعث[7].

نكتةُ التّعبيرِ بالبعثِ دُونَ الإِرْسَالِ:

البعث في اللّغة: الإثارة، والتّوجيه، والتّنبيه[8]، وهو يناسب مهمّاته ﷺ المُكلّفَ بها من لدن الباري ﷻ من تعليم وتزكية.

فائدةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾:

معنى من ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ المماثلة لهم في الأشياء الّتي تكون المماثلة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1850.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(8) الخليل، العين: (بعث)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

فيها سببًا لقوّة التّواصل، وهي هنا النّسب، واللّغة، والعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم، أي: من صميمهم ليس انتسابه إليهم بولاء أو لصق، وكأنّ هذا وجه إطلاق النّفس عليه التي هي في معنى المماثلة، فكونه من أهل نسبهم، أي: كونه عربيًّا يوجب أُنْسَهم به، والرّكون إليه، وعدم الاستيحاش منه، وكونه يتكلّم بلسانهم يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به، وكونه جارًا لهم، ورَبيًّا فيهم يعجّل لهم التّصديق برسالته، إذ يكونون قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته ومعجزاته[1].

الإنسانُ يأنسُ بالأقربِ منه نسبًا ولغةً ومسكنًا

أثرُ التّعبيرِ القرآنيّ في الأثرِ النّفسيّ:

زاد القرآنُ ترغيبَ النّاسِ فيه بقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: نوعاً وصنفاً، يعلمون أمانته وصيانته وشرفه ومعاليه[2]، فضاعف المنّة بكونه من أنفسهم، ولم يقُل: (منهم)؛ فإنّ للتّعبير القرآنيّ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ظلالاً عميقة الإيحاء والدّلالة؛ بأنّ الصّلة بين المؤمنين والرّسول هي صلة النّفس بالنّفس، لا صلة الفرد بالجنس.

الإيحاءُ بأنّه من أنفسِهم ونفسِهم نفاسةٌ في التّأثيرِ

من وجوه المنّة فيه أنّه صار شرفًا للعرب، وفخرًا لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزّخرف: 44]؛ لأنّ الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مُشتركًا فيه بين اليهود والنّصارى والعرب، ثمّ إنّ الأوّلين كانوا يفتخرون بموسى، وعيسى، والتّوراة، والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلمّا بعث الله محمّدًا ﷺ، وأنزل عليه القرآن، صار شرف العرب ذلك زائدًا على شرف الأمم جميعهم[3].

تشريفُ العربِ شرفًا زائدًا على شرفِ الأممِ جميعها

علّةُ تنكيرِ لفظ ﴿رَسُولًا﴾:

غرضُ تنكيرِ ﴿رَسُولًا﴾ التّعظيمُ، ولتجريَ عليه الصّفاتُ التي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/453.

التّعظيم، وجريان الصّفات التي كلّ واحدة منها نعمة خاصّة

كلٌّ واحدةٍ منها نعمةٌ خاصّةٌ، فالخطابُ في قولِه: ﴿فِيهِمْ﴾ وما بعده للمؤمنين من المهاجرين والأنصار تذكيرًا لهم بنعمة الله عليهم بأن بعث إليهم رسولًا بين ظهرانيهم ومن قومهم؛ لأنّ ذلك أقوى تيسيرًا لهدايتهم، وهذا على نحو دعوة إبراهيم: (ربّنا وابعث فيهم رسولًا منهم)[1].

سرُّ التّعبير بالرّسول دون النّبيّ ﷺ:

لفظ الرّسول أبلغ في الإنعام عليهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ عبّر بلفظ النّبيّ دون لفظ الرّسول، وعبّر هنا بلفظ الرّسول، والسّر في ذلك: أنَّ تلك في مقام الصّبر والتّخويف، ونفي نسبة الغلول للنّبيّ ﷺ، وهذه في مقام التّذكير بالنّعمة والإبلاغ، فناسب فيها لفظ (الرّسول)؛ لأنّه أبلغ في الإنعام عليهم[2]، ووجهُ المنَّةِ والنِّعمة التَّصريحُ بأنَّه سيكونُ رسولًا لجميعِ الأممِ، والعربُ يميلون إلى حبِّ المجدِ، فكان هذا نعمةً عظيمةً إن هم أخلصوا العملَ والنيَّة لله تعالى.

قصديّة التّعبير بالفعل ﴿يَتْلُواْ﴾:

استمرار القراءة باستمرار النّزول

عبّر بالفعل المضارع ﴿يَتْلُواْ﴾؛ لأنّ نزول القرآن مستمر، وقراءة النّبيّ له متوالية، وفي كلّ قراءة يحصل علم بالمعجزة للسّامعين[3]، والتِّلاوةُ مستمرَّةٌ في أمَّته إلى يومِ الدِّينِ، وفيه إشارةٌ إلى إعجازٍ غيبيٍّ بحفظِ القرآنِ، لأنَّ التِّلاوةَ لا تكون إلَّا لكتابٍ محفوظٍ.

الآيات تُستعمل للأمور العجيبة، اللّافتة للنّظر

بلاغة انتقاء لفظ الآيات:

كلمة (آية) معناها: الأمر العجيب، وهو الّذي يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمّل في عجائبه[4]، تقول مثلًا: فلان آية في الحسن،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/48.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/440 - 441.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 3/1854.

أي: حسنُه لافت للنّظر، وتقول: فلان آية في الذّكاء، صحيح أنّ هناك أذكياء كثيرين، لكنّه آية متميِّزةٌ في الذّكاء عن غيرِه.

كـلّ آيـة دليلٌ عـــلى صـــدق الرّسول

سمّيت جمل القرآن آيات؛ لأنّ كلّ واحدة منها دليل على صدق الرّسول، من حيث بلاغةُ اللّفظ، وكمالُ المعنى[1].

علّة تقديم جملة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾:

اقـتـضـاءُ المـقـامِ المـعـاتـبـةُ على الإقـبـــالِ على الغنيمةِ

قدّم التّزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة[2]، فناسبت التّزكية مقام نفي الغلول عنه بوصفه مزكِّيًا أنيطت به هذه المهمّة من جهة، وحاشاه أن يفعل خلاف ما يُعلِّمُ، وللتّذكير بما جرى في المعركة ممّا يستدعي التّزكية.

يـقـتـضي مـقـام الامتنان تقديم المنفعة من تلاوة الآيات

قُدّمت جملة: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ على جملة: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ لأنّ المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدّم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها، وتعجيلًا للبشارة بها[3].

الـتّـقـديـمُ والتّأخيرُ بحسب المُخاطَبِ

نقل ابن عرفة أنّ أمر التّقديم والتّأخير بحسب المجالس، فحيث تقدّم التّعليم تكون تلك الآية نزلت عليه بمحضر الخواصّ ومن هو أهل للتّعليم، فيكون التّعليم أَهَمّ، وحيث تقدّم التّزكية تكون الآية نزلت عليه في مَوضِع أكثره عوام، فتكون التّزكية في حقّهم أهمّ[4].

نكتة توسيط التّزكية بين تلاوة الآيات، وتعليمها:

ذكر العماديّ أنّه وَسَّطَ التّزكيةَ بين ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ لكونها "تكميلًا للنّفس وتهذيبها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/159.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49 - 50.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/170.

بحسب القوّةِ العمليّةِ المُتفرِّعِ على تكميلِها بحسب القوّةِ النّظريّةِ الحاصلِ بالتّعليم المُترتّب على التّلاوة؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأمورِ المترتّبةِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالِهَا مستوجبةٌ للشّكرِ فلو رُوعِي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: 129]؛ لتبادر إلى الفهم عدُّ الجميعِ نعمةً واحدةً، وهو السّرُّ في التّعبير عن القرآن بالآياتِ تارة، وبالكتاب والحكمة أخرى رمزًا إلى أنَّه باعتبار كلِّ عنوانٍ نعمةٌ"[1].

كـلُّ واحـدٍ من المذكوراتِ نعمةٌ عـلى حـيـالِـهَـا مـسـتـوجـبـةٌ للشّكر

وجه الافتراق بين التّلاوة والتّعليم:

تعليمُ الكتابِ هو تعليمُهم ما اشْتَمَلَ عليه من أحكامه ببيان ما عساه يكون فيه من نصوص تعلو على مداركهم، وتفصيل المُجمَل فيه، وتطبيقه عليهم، فتعليمُ علمِ الكتاب غير تلاوته؛ إذ تلاوته قراءته مرتّلًا مفهومًا، وتعليمه بيان أحكامه، فقد أمر بالصّلاة، والنّبيّ ﷺ علّمها، وأمر بالحجّ، والنّبيّ ﷺ علّمه، وهكذا[2].

تـلاوتـه قـراءتـه مرتّلًا مفهومًا، وتعليمه بيان أحكامه

نكتة عطف الحكمة على الكتاب:

عَطفُ الحكمة على الكتاب من قبيل عطفِ الأخصّ من وجه على الأعمّ من وجه، فمنَ الحكمة ما هو في الكتاب نحو: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9]، ومنها ما ليس في الكتاب، وفي الكتاب ما هو علمٌ وليس حكمة مثل فرض الصّلاة والحجّ[3].

مـــن عـطـف الأخـــصّ عـلى الأعمّ

علّة وصف الضّلال بالمبين:

وصف الضّلال بالمبين؛ لأنّه لشدّته لا يلتبس على أحد بشائبة هدى، أو شبهة، فكان حاله مبيّنًا كونه ضلالًا كقوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا

شدّة الضّلال لا يلتبس على أحد بشائبة هدى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1490.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/159.

سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾﴾ [النّمل: 13]، والمُراد به ضلال الشّرك والجهالة والتّقاتل وأحكام الجاهليّة[1].

نكتة التّعبير بجملة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾:

التّنبيه على بعد مـدّة ضلالهـم قبل إسماعيل عليه السلام

﴿وَإِن﴾ مخفّفة مهملة، أي: والحال أنّهم ﴿كَانُواْ﴾، ولمّا كانوا قد مرّت لهم أزمان، وهم على دين أبيهم إسماعيل عليه السلام نبّه على ذلك بإدخال الجارّ فقال: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبل ذلك[2]، ولذلك عبّر عن طول هذه المدّة بالفترة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: 19].

دلالة إعراب جملة التّذييل:

بيـان كـمـال النّعمةِ وتمامِها

جملة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ في مَوضِع الحال من الأميّين، أي: ليست نعمة إرسال هذا الرّسول إليهم قاصرة على رفع النّقائص عنهم، وتحليتهم بكمال علم آيات الله، وزكاة أنفسهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة بل هي أجلّ من ذلك؛ إذ كانت منقذة لهم من ضلال مبين كانوا فيه، وهو ضلال الإشراك بالله. وإنّما كان ضلالًا مبينًا؛ لأنّه أفحش ضلال، وقد قامت على شناعته الدّلائل القاطعة، أي: فأخرجهم منَ الضّلال المُبين إلى أفضل الهدى، فهؤلاء هم المسلمون الّذين نفروا إسلامهم في وقت نزول هذه السّورة[3]. ويجوز أن تكون الجملة استئنافًا، وعلى التّقديرين؛ فهي مُبيِّنة لكمال النّعمةِ وتمامِها[4].

معنى (إن) المخفّفة، واللّام الفارقة:

وأداةُ (إن) مخفّفةٌ منَ الثّقيلة، وهي مهملة عن العمل في اسمها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/210.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.

بيان أنّ شأنهم كونهم في ضلال

وخبرها، وقد سدّ مسدّها فعل (كان)، كما هو غالب استعمال (إن) المخفّفة، واللّام في قوله: لفي ضلال مُبين تسمّى اللّام الفارقة، أي: الّتي تفيد الفرق بين (إن) النّافية و(إن) المخفّفة من الثّقيلة، وما هي إلّا اللّام الّتي أصلها أن تقترن بخبر (إن)، إذِ الأصل: وإنّهم لفي ضلال مبين، لكن ذكر اللّام مع المخفّفة واجب غالبًا لئلا تلتبس بالنّافية، إلّا إذا أمن اللّبس[1]. المعنى: وإنّ الحال والشّأن والقصّة والواقع أنّهم كانوا من قبل بعثة الرّسول ﷺ في ضلال ظاهر يعرفه صاحبه[2].

في ذكر حالتهم الأولى بيان للفرق بين حالتيهم

ثمّ ذكر حالتهم الأولى منَ الضّلال في هذا التّذييل؛ ليُظهر الفرقَ بين حالَتَيْهم قبل البعثة وبعدها بتجاور الضّدّين[3].

صلة الآية الكريمة بما بعدها:

تمهيدٌ يهيّئ نفوسَ المؤمنين لتقبّل تلويمهم

من عناصر الجمال الأدبيّ تزيّين الكلامِ المقصود بكلامٍ تتميميٍّ له عن طريق التّمهيد أوِ المقارنة أوِ التّذييل، فالتّمهيد يكون بعرض كلامٍ يُمهّد للمقصودِ بالذّات، وتزيِّنُها وتجعلها مقبولة؛ إشعارًا بتكريم المُخاطَب والتّلطّف معه، بحسب مكانته الاجتماعية بين قومه، فهذه الآية ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بمضامينها قد كانت تمهيدًا يُهيِّئ نفوسَ المؤمنين لتقبّل تلويمهم على ما بَدر منهم من تذمُّر واستنكار لبعض المصائب الّتي أصابتهم في أعمالهم الجهاديّة، بأسباب من عند أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/210.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/46، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/110، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1859.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/537.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القراءة والتّلاوة:

التّـلاوة قـراءة مشفوعة باتّباع

تختصّ (التّلاوة) باتّباع كتب الله المُنزّلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب، وترهيب، أو ما يتوهّم فيه ذلك، وهي أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءة تلاوة، لا يُقال: تلوتُ رقعتَك، وإنّما يُقال في القرآن في شيء إذا قرأتَه وجب عليك اتّباعُه[1].

التّلاوة قراءة من مكتوب بصوت

وتُستعمل التّلاوة للقراءة من مكتوب بصوت، ويتسامح فيها، فتكون من غير مكتوب لكن بصوت، وأمَّا القراءة فتُستعمل للقراءة من مكتوب ومن غير مكتوب، بصوت وبغير صوت، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوت[2].

التّـلاوة ملازمة للقرآن من حيث تتابع القراءة

والتِّلاوةُ تكونُ فيما يطول، أي: يكثر من الكلام، ووجود عنصر التّلاحق أخذًا من الاتّباع واللّحوق في استعمالات التّركيب الذي يتيح ذلك؛ لأَنّ أصل التِّلَاوَة من قَولك: تَلا الشَّيء يتلوه إذا تبعه، فإذا لم تكن الكلمة تتبع أُختها لم تُستَعمل فيها التِّلاوة، وتُستعمل فيها القراءة[3]. ومن هنا قيل في التِّلَاوة: هي قراءة القرآن متتابعة[4].

ولِمَا تقدَّم من فرق دقيق بين اللّفظين تبيّن قصديّة اختيار لفظ التّلاوة بوصفه مخصوصًا بالقرآن، من حيث تتابع قراءته، فضلًا عن كونها قراءة من مكتوب بصوت، شريطة الاتّباع.

(1) الرّاغب، المفردات: (تلى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 27 - 63.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 308.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»